بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوّار لم ير الناس حاكمًا قط ولا زميتًا ولا ركينًا
ولا وقورًا اضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك كان يصلي الغداة
في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكي ولا يزال منتصبًا لا
يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحوّل رجلًا عن رجل ولا يعتمد على احد
شقيه حتى كانه بناء مبني او صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلوة الظهر
ثم يرجع الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلوة العصر ثم يرجع الى مجلسه ولا يزال
كذلك حتى يقوم لصلوة المغرب ثم ربما عاد الى مجلسه بل كثيرًا اما يكون ذلك اذا بقي
عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ثم يصلي العشاء وينصرف لم يقم في تلك
الولاية مرة واحدة الى الوضوء ولا احتاج اليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب
وكذلك كان شانه في طوال الايام وفي قصارها وفي صيفها وفي شتائها فكان مع
ذلك لا يحرك يدًا ولا يشير براسه وليس الا ان يتكلم ثم يوجز ويبلغ بالكلام اليسير
المعاني الكثيرة فبينما هو ذات يوم كذلك واصحابه حوله وفي السماطين بين يديه
اذ سقط على انفه ذباب فاطال السقوط والمكث ثم تحول الى موق عينه فرام الصبر
في سقوطه على الموق وعلى عضته ونفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على انفه من
غير ان يحرك ارنبته او يغمض وجهه او يذب باصبعه فلما طال عليه ذلك من
الذباب واوجعه واحرقه وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل عنه اطبق جفنه الاعلى على
جفنه الاسفل فلم ينهض فدعاه ذلك الى ان والى بين الاطباق والفتح فتنحى ريثما
سكن جفنه ثم عاد الى موقه اشد من مرته الاولى فغمس خرطومه في مكان قد كان
اوهاه قبل ذلك فكان احتماله له اضعف وعجزه عن الصبر في الثانية اقوى فحرك
اجفانه وزاد في شدة الحركة وهو يتابع الفتح والاطباق فتنحى عنه بقدر ما سكنت
حركته ثم عاد الى موضعه فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده فلم يجد بدًّا الى
ان يذب عن عينيه بيده ففعل ذلك وعيون القوم اليه يرمقونه كانهم لا يرونه فتنحى
عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ثم عاد الى موضعه فالجاه الى ان ذب عن وجهه
بطرف كمه ثم الجاه الى ان تابع ذلك وعلم ان ذلك كله بعين من حضر من امنائه
وجلسائه فلما نظروا اليه قال اشهد ان الذباب الح من الخنفساء وازهى من

واذ نجيناكم من آل فرعون

الغراب استغفر الله فما اكثر من اعجبته نفسه واراد الله تعالى ان يعرفه من ضعفه ما كان
عنه مستورًا وقد علمت اني عند الناس من ارهب الناس وقد غلبني وفضحني اضعف
خلق الله ثم تلى قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب مجلس آخر تاويل
آية ان سال سائل عن قوله تعالى واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب
يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم فقال ما تنكرون
ان تكون في هذه الآية دلالة على اضافة الافعال التي تظهر من العباد اليه تعالى من وجهين
احدهما انه قال بعد ما تقدم من افعالهم ومعاصيهم وفي ذلكم بلاء من ربكم
عظيم واضافها الى نفسه والثاني انه اضاف نجاتهم من آل فرعون اليه فقال واذ نجيناكم
من آل فرعون ومعلوم انهم الذين ساروا حتى نجوا فيجب ان يكون ذلك ايضًا فعله
على الحقيقة حتى تصح الاضافة الجواب قلنا اما قوله تعالى وفي ذلكم فهو اشارة الى
ما تقدم من ذكره من انجائه لهم من المكروه والعذاب وقد قال قوم انه معطوف
على ما تقدم من قوله يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم
على العالمين والبلاء ههنا الاحسان والنعمة ولا شك في ان تخليصه لهم من
ضروب المكاره التي عددها نعمة عليهم واحسان اليهم والبلاء عند العرب قد يكون
حسنًا ويكون سيئًا قال الله تعالى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنًا ويقول الناس في الرجل
اذا احسن القتال والثبات في الحرب قد ابلى فلان ولفلان بلاء والبلوى ايضًا
قد تستعمل في الخير والشر الا ان اكثر ما يستعملون البلاء الممدود في الجميل والخير والبلوى
المقصورة في السوء والشر وقال قوم اصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان
ثم يستعمل في الخير والشر كما قال تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون يعني اختبرناهم
وكما قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون فالخير يسمى بلاء والشر يسمى
بلاء غير ان الاكثر في الشر ان يقال بلوته ابلوه بلاء وفي الخير ابليته ابليه ابلاء وبلاء وقال
زهير في البلاء الذي هو الخير جزى الله بالاحسان ما فعلا بكم وابلاهما خير البلاء الذي يبلو
فجمع بين اللغتين لانه اراد فانعم الله عليهما خير النعمة التي يختبر بها عباده وكيف يجوز ان
يضيف ما ذكره عن آل فرعون من ذبح الابناء وغيره الى نفسه وهو قد ذمهم عليه ووبخهم
وكيف يكون ذلك من فعله وهو تعالى قد عد تخلصهم منه نعمة عليهم وكان يجب على هذا ان
يكون انما انجاهم من فعله بفعله وهذا مستحيل لا يعقل ولا يحصل على انه يمكن ان يرد قوله

Copyright King Saud University